الحاجة إلى الجذور

للدكتور عمر حليق

في تراث الماضي ورواسخه ذخيرة من الطمأنينة الروحية جيلنا المثقل بالأعباء في حاجة إليها . وفي النفس رغبة ملحة لأن تعادل في نباهة بين ما تتشوق إليه في الحياة اليومية من هناء وطمأنينة واستقرار ، وبين ما يكتنفها من قلق وفتنة وتشويش مبعثه تسيار الحوادث وطبيعة التيارات الفكرية التي تعصف بالمرء في طور الفتوة العقلية في حاضر جيل كجيلنا مشحون بشتى أنواع الصراع

فهذا الجيل عجيب بين أجيال التاريخ . ولد في أهوال الحروب، ورضع من دم الثورات ، وشب في عهود الفتن والانقلابات ، وفي عواصف الفوضى الثقافية والعاطفية التي تنقلها إليه مواصلات فكرية سريعة ربطت أركان المعمورة بعضها ببعض فأصبحت كالدف تنقر عليه من أي ناحية فينقل الصدى إلى السامعين

وقد فرض على هذا الجيل مسؤوليات جسام ، فوجد نفسه مشوش التفكير موزع الأهواء ، فقد اتسعت مداركه بالعلم الحديث وازدادت إحساساته بالتجارب فأصبح يبحث عن استقرار وحرية وانطلاق ، لا كترف يزين به رجولته ، ولكن كمبول لتحقيق الطمأنينة في مفاهيمها العديدة — اقتصادية وسياسية وثقافية — لعله مستطيع تلبية حاجاته ، وهي تفوق في ماهيتها وكميتها حاجات الأجيال السابقة

وفي إبان يقظة هذا الوعي يواجه جيلنا ألوانا من المغريات فينساق معها المرة بعد المرة راميا بمسؤولياته إلى الجحيم ، ولكن تسرعان ما تجذبه هذه المسؤوليات إليها في عنف وشدة لتذكره بأن المغريات في هذا الجيل لا تنال اختلاسا ، ولا تستطيع أن تمنح المتعة الحقة إلا إذا توافرت أسبابها الاقتصادية وأوساطها الاجتماعية ودون ذلك ستاثر كثيفة نساجها من مقدمات البيئة وتركز الثروة وسوء توزيعها ، وما أولدته من أنظمة الطبقات واختلال الميزان الاجتماعي وما نتج عن ذلك من كبت للمواهب وقضاء على الفرص والإمكانيات ، وكل هذه عقبات منيعة لا مفر لجيلنا المدرك لحقوقه وواجباته أن يجاهد للتغلب عليها

وفوق هذه المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مشكلة أهم يتخبط فيها جيلنا حين يحاول أن يوفر للنفس ذخيرة ثقافية تعينه على مواجهة هذا التحدي . فبين النفس واستقرارها فوضى ثقافية تسربت إلى جيلنا من بلبلة برامج التعليم وتنوع الغذاء العقلي والروحي الذي يغزونا من كل الجهات ، من تراث الماضي وقوته التي تهيمن على بيئتنا وتكويننا الخلقي ، ومن تيارات الحاضر وهي تيارات فيها من عناصر التشويش والتناقض ما يفرض على عقولنا وإحساساتنا صراعا لا رحمة فيه ، ندفع إليه مسيرين لا مخيرين رغبة منا في أن نحقق لأنفسنا نهجا في السلوك وسبيلا إلى الطمأنينة تتناسب مع ما تشبعت به عقولنا وعواطفنا من مبادئ وما تولد في أنفسنا من حاجة إلى العيش الشريف في عالم تشعبت مطالب العيش فيه وازدادت في مجال الموازنة مع مطالب الأجيال السابقة

هذا والكثير من أشباهه بعض ما نواجهه من تحد . ومن ثم ألمت بشخصية جيلنا ألوان من القلق وضروب من المسؤوليات تفرض عليه أن يجد لمواجهتها حلولا سليمة

فمنا من ينساق إلى مغريات التطرف فيثور على النظم والمجتمع وبيئته وثقافته ، ويعتقد بأنه واجد الخلاص في اعتناق هذه النظم والمبادئ المتطرفة التي يخيل إليه أنها ستوفر لأزمته أقرب الحلول وأقصر المسالك . وتاريخ الإنسانية مليء بهذا النوع من أفراد المجتمع الذين يسأمون من بطء التطور ، فيلجأون إلى التغلب عليه بسلاح التطرف في العمل والتفكير

ومنا من يتكر على جيله تعدد المطالب وتشعب المسؤولية ، فيختار العيش في الماضي المحافظ ويمتزج امتزاجا كليا في تقاليده وتراثه وبيئته لعله قادر على أن يحقق مطلب النفس من الطمأنينة والاستقرار الذي يبدو له أن الجيل السابق والأجيال التي أتت قبله قد استطاعت أن تنعم بها

ولكن أكثرنا لا يرضى عن هذين الاتجاهين ، فهو لا يستطيع أن يعيش في الماضي المحافظ في عزلة عن تيارات الفكر والتطور الذي ألم بالحياة وبالمجتمع الأكبر . فكل شيء في الحياة

والمجتمع تلح عليه أن يواجه العصر بأسلحة العصر . ولكن أكثرنا مدرك كذلك بأن التطرف والثورة على النظم ليست كفيلة بأن توفر لهم ولقومهم ما هم في عوز إليه من عدالة واستقرار

فالثورة والاندفاع المتطرف في عالم تكتنفه الذئاب لا يحقق لجيلنا مايطمحون إليه من أسس ومبادىء إلا إذا ارتضى لنفسه ولقومه أن يصبحوا فريسة لطبقة من المجتمع أو لدولة من الدول التي تتحين ميلاد الأوضاع الثائرة فتزحف لتملأ « الفراغ » بدعوى حفظ الأمن والاستقرار . ولنا في اختباراتنا واختبارات غيرنا في كوريا وغير كوريا أمثلة وافية على ذلك

وحين يحاول أكثرنا في صدق ونباهة أن يدفع عن نفسه القلق وأن يواجه مسؤولياته السياسية والاجتماعية والفكرية يجد نفسه تتزلق في مسلك وعر .

ففريق يندفع إلى الاعتقاد بأن جوهر الإشكال هو توفير الحرية الديمقراطية خالية من سيطرة الدين ورثوها مع ماورثوه من مال وعقار . ومن ثم يتجه هذا الفريق إلى النشاط الحزبي مدفوعا إلى ذلك برغبة تلح عليه في أن يصلح الأداة السياسية فيحقق لنفسه ولقومه العدالة والطمأنينة في مفاهيمها العديدة ، واثقا من أن الحرية السياسية (على نحو ماتفسرها الديمقراطيات الغربية) ستوفرها له على أتم الوجوه وأحسنها . وهذا الفريق أميل إلى تجاهل العناصر الأخرى التي تشارك الحرية السياسية في الأهمية والقوة

وفريق آخر يختار التفسير الاقتصادي لأزماته ومسؤولياته فيجد العلة الكبرى في تركز الثروة وفقدان التوازن في النظام الطبقي ويتحمس لاعتناق تعاليم « ماركس » وغيره من أنبياء الشيوعية ودعاة الاشتراكية على علاتها . وهذا الفريق أميل في المراحل النهائية إلى الشك في صلاح هذا التفسير الاقتصادي منه إلى الثقة به . فأنبياء الشيوعية ودعاتها لم يتطرقوا إلا من طرف غير مباشر إلى ألوان العقد والمشاكل والمسؤوليات التي يواجهها جيلنا في مجتمع عربي إسلامي هم بحكم البيئة والتراث والمقدمات وبفضل دوافعه الروحية والمادية يختلف في أوجه عديدة هامة عن المجتمعات التي عالج مشاكلها ماركس وفلاسفة الاشتراكية الأوروبيون . ومثل هذا الفريق مثل الطبيب الذي يعالج أمراض المناطق الحارة بالأدوية والوصفات التي تعالج بها أمراض القطب المتجمد الشمالي . وهناك فريق ثالث يشارك أقرانه في مواجهة التحدي وملاقاة المسؤوليات التي فرضت عليه ولكنه لا يسمح لنفسه أن تقتنع بأي حل من الحلول التي اقتنع بصلاحها الفريقان الآخران . فهو لا يؤمن بأن الحرية السياسية كما تبشر بها ديمقراطيات الغرب كافية وحدها لبناء المجتمع الجديد . فهذه الديمقراطيات نفسها ساعية لتطعيم أنظمتها بعناصر مستجدة من تطور الفكر والوعي في الجيل الجديد . وهذا الفريق الثالث لا يستطيع كذلك أن يتجاهل العناصر التقليدية الراسخة — الدينية والثقافية والاجتماعية — التي تعيش عليها بيئته عندما يبحث عن الحلول في تعاليم الشيوعيين والمبادىء والنظم الأخرى التي رضعها المصلحون لمجتمعاتهم التي إن شابهت مجتمعنا في وجه فإنها تختلف عنها في أوجه أخرى

وفي هذا الفريق نزعة كامنة — مهما ماشئت دينية أو قومية تصر على أن يرعى تراث الماضي وذخيرته ، وهذه المقدمات والعناصر الخالدة التي تطفح بالروعة وتمتلىء بالطمأنينة والاستقرار في عالم يكتنفه التفكك والعقد والأزمات الروحية والمادية

وهذه النزعة ليست لونا من الترف العقلي أو نوعا من المخدرات الروحية التي ما أكثر مايتهم بها الراغبون في مواجهة التحدي في ترفع عن صرخات الاجتهاد الخاطىء للذين اعتقدوا بأنهم وجدوا الحلول لمسؤولية الجيل . بل الحق أن هذه النزعة ضرب من الاجتهاد الجاد للبحث عن منقل للإيحاء الروحي والفكري لا ينضب معينه — وهو منقل لابد لكل من أحاطت به مسؤولية أو ألمت به أزمة من أن يلجأ إليه ليستمد منه القوة والشجاعة والرأي السديد

فجيلنا أشبه بالجيش المنهزم يواجه المعركة الفاصلة على حدود بلاده فهو لا يجد الحكمة في أن يغامر بما تبقى لديه من قوة ومناعة ليظفر بجزء من عتاد الأعداء وذخيرتهم ليتسلح بها في الموقعة الفاصلة ، بل الحصافة في أن يجمع ما استطاع جمعه من ذخيرة وقوة محلية من طول البلاد وعرضها . فيقتلع أسلاك الحدائق وبوابات القصور وقضبان النوافذ ليصهر ويصنع منها سلاحا يتحصن فيه في خندق مكين إلى أن يستعيد من بأسه ويجدد قوته الكامنة في عزم شديد

وجيلنا فى عراكه مع المسؤوليات الجسام التى تتحداه لا يستطيع أن يضمن لنفسه النصر إذا اختار المغامرة فى المعركة الفاصلة فاندفع بجمع ذخيرته من فتات الآراء والمبادئ يلتقطها من أطراف الميدان الذى يسيطر عليه العدو الملاحق . بل إن طبيعة هذا العراك تفرض على جيلنا أن يختار لنفسه حصنا منيعا يجمع فيه ما استطاع اكتشافه من ذخيرة فكرية وتراث روحى من صميم المجتمع الذى نصب نفسه مدافعا عن حماه ساعيا إلى تحويله إلى مجتمع أفضل

فكما أن آلة الحرب فى أزمنة الصراع لا يمكن لها أن تقتصر فى استعدادها على ما تستورده من ذخيرة وعتاد وإنما تسعى جادة لإنشاء المصانع فى أرض الوطن بعد أن تتيقن من أصناف المواد الخام المتوفرة فى تربتها ؛ فإن عراك الجيل يجب أن لا يقتصر فى استعداده على ما يستورده من بضاعة فكرية مصادرها عديدة وإلا كان أشبه بالجيش الذى يتسلح ببندقيات بريطانية رصاصها بلجيكى وطائرات روسية لا يصلح لإدارتها ما يتوفر لهذا الجيش من غاز ممكر

فالمهم أن نعكف قبل كل شئ على إحصاء ما يتوفر لدينا من مادة خام — من بيئة ومقومات وتراث روحى — قبل أن نختار القوالب الفكرية المستوردة التى نطمح فى أن نجهز بها أنفسنا وعقولنا لمواجهة مسؤليات الجيل

فنحن حاجة ماسة إلى الجذور ؛ جذور الفكر وأحوال التراث ودعائم البيئة التى نشأنا فيها وطبيعة المقدمات الخلقية والثقافية التى يعيش عليها مجتمعنا

ومن هنا أخذ فريق منا يندفع باحثا عن همزة الوصل بين تراث الماضى وذخيرته ومسؤولية الجيل الذى نحن منه

وبفضل ذلك وجد كاتب هذه السطور نفسه راغبا فى أن يشارك قراء الرسالة فى متعة نعم بها فى مطالعته لكتاب أصدرته المطابع الغربية مؤخرا لمؤلفة فرنسية شابة كلفها رجال المقاومة السرية فى فرنسا إبان الاحتلال النازى أن تدرس الأسباب التى أدت إلى انهيار فرنسا السياسى والعسكرى وتقلص الروح المعنوية بين الكثرة الساحقة من أبنائها ، وأن تستوحى من ذلك أسس المجتمع الجديد الذى ألقيت مسؤليات تعميره على عاتق الجيل الذى هي منه

فجاء هذا الكتاب سجلا لكثير مما يسود حاضر هذا الجيل من قلق وانفعال ؛ وإيحاء صادقا لما تعتقد هذه الكاتبة القديرة بأنه هون على مواجهة مسؤولياته الجسام

وقد شغفت هذه المؤلفة سنوات طوالا بمعالجة موضوعها فلم تكترث للمال الذى كان يمتص حيويتها ولم تضع القلم إلا بعد أن أتمت البحث فتلقف الناس الكتاب وزحفت هى إلى القبر لترقد رقدتها الأخيرة

واسم المؤلفة « سيمون وايل » وقد توفيت عن (٣٤) عاما أما الكتاب فترجمة عنوانه « الحاجة إلى الجذور[1] » وهى الترجمة التى اختارها الناشر الإنجليزى

فانصاحب هذا الكتاب فى عدد الرسالة القادم الكلام صلة

عمر عليبى

النص الفرنسى L'Enracinement Par, Simone well
الترجمة الانجليزية The need for Roots ترجمة Arthur wills
من منشورات دار بوتمان بلندن العام الحالى

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة المجلد الأول
من كتاب
وحى الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك
طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفا
وهو يطلب من ادارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد